المنهج الانطباعي

لعل اصطلاح المنهج التأثري أو المنهج الانطباعي يطرح منذ البداية مفارقة حيث المنهج كما ذكرنا في المحاضرة السابقة هو " منظومة من الأدوات و المفاهيم و المصطلحات ، بها تتقعد القواعد ، و تتضح المفاوز و المسالك ، كما أنه أيضا و بالضرورة محكوم بفضاء نظري و ابيستيمي يشكل رحمه و مجاله الحيوي "[1] بينما ترتبط الانطباعية بالذات التي تصدر أحكامها العاطفية و الانفعالية و استجاباتها الآنية إزاء النص أو اللوحة أو المشهد ، و من هنا تأتي المفارقة ، فأن تكون صاحب منهج في التحليل فذلك يعني أن تضع ذاتك و انطباعك في عزلة عن موضوعك و تباشر القراءة بأدواتك المنهجية و آلياتك القرائية التي تنشد من ورائها الموضوعية .

غير أن حدة المفارقة ستخف قليلا إذا نظرنا إلى مفهوم المنهج بمنظار أكثر مطاطية ، فالمنهج ليس فقط " مجرد وسيلة للبحث عن المعرفة و فحصها ، أي مجرد خطة مضبوطة بمقاييس و قواعد و طرق تساعد على الوصول إلى الحقيقة ، و تقديم

---

[1]-نجيب العوفي : ظواهر نصية ، مطبعة النجاح الحديدة ، الدار البيضاء ، المغرب ،

الدليل عليها . هذه مجرد أدوات إجرائية و هي لا تمثل إلا جانبا واحدا من المنهج هو الجانب المرئي من المنهج " [2]كما يقول عباس الجراري في كتابه " خطاب المنهج" . إن المنهج أبعد من هذا هو " منظومة متكاملة تبدأ بالوعي و الرؤيا المشكلتين لروح المنهج و كنهه اللامرئي" [3] و لعل هذا ما يفسر تباين القراءات داخل المدرسة النقدية الواحدة و تعددها بتعدد النقاد ، فأثناء التطبيقات المنهجية لا يمكن للناقد التخلي تماما عن " روحه" النقدية ما يسمح دائما بتسرب الانطباعات الخاصة . و لعل الانطباعيةimpressionisme كمدرسة ارتبطت أولا بالفنون التشكيلية ، حيث تنسب التسمية إلى لوحة فنية عنوانها impressionللرسام الفرنسي كلود موني. و الانطباعية " مدرسة فنية تشكيلية ظهرت بين 1874-1886 من خلال ثمانية معارض بباريس و قد جسدت قطيعة الفن الحديث مع الأكاديمية الرسمية " [4]ثم صارت اتجاها فنيا و نقديا عاما يسعى إلى " تقييد الانطباعات

---

[2]-عباس الجراري : خطاب المنهج ، ص40.

[3]- عباس الجراري : خطاب المنهج ، ص41.

[4] –Petit Larousse Illustré, Librairie Larousse ,Paris, France,1980, p515.

الهاربة و حركية الظواهر " [5] و يحث الفنان على تجسيد انطباعاته البصرية أو النفسية أو العقلية بشأن موضوع ما لا العناية بنقل الواقع الموضوعي للظواهر و الأشياء.

لقد انتقلت الانطباعية من الفن التشكيلي إلى النقد الأدبي بوصفها " منهجا ذاتيا حرا " [6] يمكن الناقد من نقل إحساساته و انطباعاته حول النص الأدبي للقراء دون مراعاة للاعتبارات العقلية . و الناقد في هذا المنهج لا يتبع طرائق علمية بل يعتمد فقط ذوقه الفردي الخاص.و من هنا يصير النص الأدبي معبرا للبوح بالتجارب الخاصة و فضاء للتعبير عن ذات الناقد و أفكارها و رؤاها و مشاعرها مما يؤدي إلى امتزاج تجربة النقد بتجربة الإبداع لذا لا نعجب عندما نجد رواد النقد الانطباعي يمارسون بدورهم الإبداع.

لقد تزعم سانت بيف (1804– 1896) هذا الاتجاه النقدي و كان شاعرا مرهف الحس ، الأمر الذي انعكس على أعماله النقدية التي تميزت بدورها بلغة شعرية ، و سار في فلكه الناقد جول لو ماتر صاحب المقولة المشهورة " إننا في الحقيقة لا نحب المؤلفات

---

(5) –Ibid,p 516.

(6) -يوسف وغليسي : مناهج النقد الأدبي ، جسور للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ط1 2007، ص09

الأدبية لأنها جيدة ، بل تبدو جيدة لأننا نحبها" [7] و جول لوماتر بهذا يؤسس لمبدأ القراءة العاشقة حيث أن حب النص هو الباعث على صناعة قيمته و التأثير بالتالي في قرائه، فالناقد هو وسيط انفعالي بين النص و القارئ و يستطيع بقدرته النقدية أن ينسي القارئ نفسه ليرمي به في عالمه الخاص حيث تكون التجربة النقدية هي تجربة ذاتية بالأساس. و يعد أندريه جيد واحدا من النقاد و الفلاسفة الذين دافعوا عن النقد التأثري جاعلا من فن النقد مجالا للاعترافات الذاتية و التعبير عن التجارب الخاصة في الحياة و في الفكر ، لذا نجد الممارسة النقدية التطبيقية مزيجا من التعبير عن النص المقروء و السيرة الذاتية و الآراء الشخصية .[8]

تلقف النقد العربي الحديث المنهج الانطباعي و عبر عنه بمصطلحات عديدة كالمنهج التأثري حينا و المنهج الذاتي حينا آخر و المنهج الذوقي أحيانا أخرى . و لقد بشر بهذا المنهج أول الأمر طه حسين الذي أكد على كون " الحضور الانطباعي ضرورة يقتضيها النقص الذي يواجه الناقد / المؤرخ" ثم تبناه تلامذته و في مقدمتهم محمد

---

[7] -يوسف وغليسي : مناهج النقد الأدبي ، ص09.
[8] - نفسه ، ص10.

منذور الذي تنقل بين كثير من المناهج لكنه آمن دائما بأهمية المنهج الانطباعي في كل عملية نقدية ، يقول : " المنهج التأثري الذي يسخر منه اليوم بعض الجهلاء ، و يضنونه منهجا بدائيا عتيقا باليا لا يزال قائما و ضروريا و بديهيا في كل نقد أدبي سليم ، ما دام الأدب كله لا يمكن أن يتحول إلى معادلات رياضية أو إلى أحجام تقاس بالمتر و السنتي أو توزن بالغرام و الدرهم " [9] إن الأدب ذوق و فن برأي محمد منذور و يستحيل أن يقوم نقد يقوم بشؤون هذا الأدب و يكون خاليا من الذوق الذاتي للناقد ، شريطة أن يكون هذا الذوق مصقولا بكثرة القراءات مدربا بكثرة الممارسات النقدية .

من الذين تشيعوا للمنهج الانطباعي في نقدنا العربي الحديث الكاتب يحي حقي الذي تميز بحماسة عالية و هو يتحدث عن هذا المنهج ، يقول : " هذا اللون من النقد الذي أتشيع له و أدعو إليه ، و لا أتنازل عنه على الإطلاق ، و هو النقد الذي أطلق عليه (النقد التذوقي) فلا يحكمون على الأعمال الأدبية المليئة بالمشاعر و الأحاسيس و

---

[9] -محمد منذور : الأدب و فنونه ، ص 140.

العواطف بالقلم و المسطرة و التقسيمات النظرية الجافة" [10]و نلمس في هذا القول فرارا تاما من عالم النظرية النقدية التي غزت مقولاتها العالم العربي بعد حملة نابليون على مصر و إصرارا على الإرث النقدي العربي الذي أشاد دائما بذوق الناقد في تمييز الأعمال الجيدة من الرديئة.

والحقيقة أن دفاع منذور و من والاه عن الذوق في النقد لم يمر بسلام ، فقد تصدى له زعماء الفكر العلمي الذين تأثروا بالغ التأثر بالحداثة الغربية ، و من هؤلاء زكي نجيب محمود الذي انتصر في مقالته الشهيرة " النقد الأدبي بين الذوق و العقل " لقضية علمية النقد الأدبي معتدا بمقولات الحداثة مؤكدا على أن النقد الحقيقي هو التحليل و التعليل اللذان يستعينان بالعلوم المختلفة ، و يخلص إلى القول أن العقل هو المرجعية الحقيقية للممارسة النقدية و ما الذوق إلا حس بسيط يرافق عملية التحليل المنهجي[11]. و على العموم فالنقد الانطباعي الذي نبذ القواعد و المعايير الأكاديمية أنتج خطابات إنشائية لم ترق إلى مستوى التحليل العلمي ما أدى إلى انحصار رقعته

---

[10]-في حوار أجراه معه محمد العباسي ، مجلة العالم ، العدد 292 سنة 1989.

[11]- ينظر زكي نجيب محمود ، قشور و لباب ، ص54 و ما بعدها.

لأن العصر كله كان ينشد العلمية و الحداثة و محاولة الالتحاق بالركب الحضاري

الغربي الذي أعلن القطيعة مع العاطفة و اللاهوت و آمن فقط بالعقل .